ثامناً:

أشهر أساتذة التشريع من الصحابة

أشهر أساتذة التشريع من الصحابة بالمدينة:

عمـر بـن الخطـــاب - رضى الله عنه -

عمر بن الخطاب هو الناسك الذى تفجر نسكه حركة، وذكاء وعملا وبناء.

هو المعلم الذى صحح مفاهيم الحياة وأفرغ عليها نوراً من روحه، وكساها عظمة من سلوكه وكان للمتقين إماما.. !!

هو البسيط فى قوة، القوى فى عدل ورحمة.. هو الحاكم المؤمن الذى أنجبته البشرية ورباه الإسلام.

هو من وصفوه بأنه: "إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع.. فقد ورث من طباع أبيه صرامة لا تعرف الوهن، وحسما لايؤرجحه التردد، وتصميما لا يقبل أنصاف الحلول.

إنه صاحب الطبيعة الفذة التى قلما تتكرر، وقلما يكون لها فى الأعداد الهائلة من البشر نظير.

ولقد أدرك الرسول ﷺ عظمة تلك الطبيعة البشرية التى رزقها عمر.. وكان يعرف ما تنطوى عليه من أصالة واقتدار ولذلك كان يدعو ربه بأن ينصر الإسلام به.ولقد ربح الإسلام بانضمام عمر ﷺ إليه، وقد قال عبد الله بن مسعود:

"مازلنا أعزة منذ أسلم عمر، كان إسلامه فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر"..!

وقد لقبه رسول الله ﷺ بالفاروق، بعد أن فرق الله بإسلامه بين الحق والباطل، وبين الملاينة والمواجهة.

وعمر هو ثانى الخلفاء الراشدين بعد أبى بكر الصديق وهو صاحب المقولة الشهيرة: "ماذا تقول لربك غدا إذا أتيته" ومن هذه المقولة يتمثل دين عمر ومنهاجه، وتستمد حياته موازينها ومعاييرها. وعلى الرغم من أنه كان أقوى من

كل شهوة وزلة، حتى لأنه معصوم من الخطأ عصمة كاملة، وقد بشره رسول الله ﷺ بالجنة، ومع هذا يقف بين يدى الله موقف الخشية والحذر والحياء حتى أنه حين يؤم الناس فى الصلاة كان يسمع بكاءه ونشيجه أصحاب الصف الأخير..!

هو ذلك الإنسان الخاشع الضارع الأواب الذى لا شىء يؤرقه فى نومه، ويقلقه فى صحوه مثل الخشية من أن يسأل ربه غداً فى عتاب "لماذا فعلت هذا ياعمر"؟

وحين تولى الخلافة بعد أبى بكر خطب عمر فى الناس قائلا:

"أيها الناس إنى قد وليت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم اضطلاعاً بأموركم ما توليت ذلك منكم، ولكفى عمر انتظار الحساب"..!

وحين أصبح حاكما حرم نفسه من الطيبات المشروعة للحاكمين، ومن الطيبات المشروعة للمواطن العادى.

وقد فعل ذلك بروح المسئولية التى حببت إليه أن يكون أول من يجوع إذا جاع قومه.. وآخر من يشبع إذا شبعوا وكان يقول: "كيف يعنينى شأن الناس، إذا لم يصبنى ما يصيبهم"!!

ولقد رفض أمير المؤمنين إلحاح أصحابه وإخوانه لكى يولى ابنه "عبد الله" منصبا من مناصب الدولة.. كما رفض أن يرشحه عند موته للخلافة ضمن الستة الذين رشحهم ليختاروا من بينهم وقال:

"حسب آل عمر أن يحاسب منهم واحد، هو عمر"

وقد وضع مبدأ جليلا فقال:

"من استعمل رجلا لمودة أو قرابة، لا يحمله على استعماله إلا ذلك. فقد خان الله ورسوله والمؤمنين".

وعن الاجتهاد والفتوى فى عهد عمر كما روى عن شريح أنه قال: قال لى عمر بن الخطاب أن أقض بما استبان لك من قضاء رسول الله: فإن لم تعلم من أقضية رسول الله ما يساعدك فاقض بما استبان لك من أقضية أئمة المجتهدين، فإن لم تعلم فاجتهد رأيك واستشر أهل الصلاح والعلم.

ولو تتبعنا تاريخ "عمر" لعرفنا كيف كان أظهر الصحابة فى استعمال الرأى والاجتهاد وكيف كان للشورى فى عهده دور مهم.. وكيف أدرك أن الحرية حق تعلنه لحظة الميلاد.. وكيف أن الحرية لديه هى حرية الحق الذى فوق جميع القيود.. وكيف كان يرى الناس أحرار فى أن يعلنوا آراءهم ويحدثوا بما فى أنفسهم، فإن أصابوا ربح الجميع وإن كان هناك خطأ تبينوه.

وأعظم مثال على عدل عمر وديمقراطيته حين طلب من العباس أن يترك داره لأنها قريبة من المسجد ليزيد مساحته بها لأنه سمع رسول الله يقول بذلك قبل وفاته، وأن يعوضه بأفضل منها ولكن العباس رفض وطلب منه أن يحتكموا أمام حذيفة بن اليمان ووافق عمر، ولم يستدع حذيفة بل ذهب إليه هو والعباس الذى قضى بعدم أخذ عمر لداره إلا برضاه وليس قهراً، فعدل عمر عن هذا.. وحينها نظر العباس إليه وقال: ألا تزال تريد أن تغلبنى على دارى؟

قال عمر: لا ...

قال العباس: ومع ذلك فقد أعطيتك الدار تزيدها فى مسجد رسول الله!

وكان عمر عالما فقيها، وقد قال عنه عبد الله بن مسعود: "كان عمر أعلمنا بكتاب الله. وأفقهنا فى دين الله".

وكان أصحابه يتحدثون بأنه ذهب وحده بتسعة أعشار العلم.

وقد قال رسول الله ﷺ مشيداً بفطنته الخارقة: "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه".

ولعقله المضىء وبصيرته الذكية جعله الرسول مصدراً من مصادر التشريع حين قال لأصحابه:

" إنى لا أدرى ما مقامى فيكم، فاقتدوا باللذين من بعدى، أبى بكر وعمر".

وكانت المظاهر العابرة لا تكفى عنده لتكوين أحكام عن الآخرين. فحين سمع واحداً يطرى آخر ويمتدحه قائلا، إنه رجل صدق فيسأله عمر: هل سافرت معه يوما..؟

يقول الرجل: لا.

- هل كانت بينكما خصومة يوماً..؟
- لا..
- هل ائتمنته يوماً على شيء..؟
- لا

فيقول عمر: "إذن لا علم لك به. لعلك رأيته يرفع رأسه فى المسجد ويخفضه"..!!!

إنه عمر هذا الإمام الورع التقى لا يرى فى رفع الرأس وخفضه فى المسجد كافيا للثقة بمن يفعل هذا، لا تهوينا لشأن العبادة، ولكن إحاطة بأسرار النفس البشرية.. فهو فى معرفته بالناس. لا يكتفى بتمحيص جانب العبادة فيهم إنما يُطل على الشخصية كلها، فالعبادة عنده تعنى استواء الشخصية كلها وكانت التقوى عنده قوة وطهر وسعة حيلة وتفوق.

وكان يدرك "عمر" بفطنته أن الفضيلة ليست إنسحابا من الحياة خوفا من الفتنة، بل هى مجابهة الحياة ومغالبة الفتنة.. وفى هذا يُسأل: أيهما أزكى وأفضل – رجل لا يأثم لأن نفسه لا تشتهى الإثم، أم رجل تشتهى نفسه الإثم ولا يأثم؟

فيجيب عمر: "الذين يشتهون المعصية، ولا يعملون بها، اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم".

وكان من الممكن أن يفتى فى قضيتين متماثلتين بفتاوى مغايرة فإن سئل عن السر فى هذا يقول: "ذاك على ما قضينا، وهذا على ما نقضى".. أى أن ظروف القضيتين مختلفة، وإن تماثلت الوقائع. فهو لا يضع فتاواه فى قوالب جامدة بل كان يتعامل معها بحسب الظروف والأسباب التى تستجد أو تنقص، فمثلا نراه ينهى حكما شرعيا كان قائما فى عهد الرسول ﷺ وأبو بكر ﷺ ولايزال منطوق هذا الحكم آية تتلى فى كتاب الله.. وهذا الحكم، هو تخصيص جزء من ضريبة الزكاة للمؤلفة قلوبهم.. وهؤلاء هم من دخلوا الإسلام باقتناع ضعيف أو بغير اقتناع ، ففرض القرآن لهم فى بيت المال حظاً يأخذون منه الزكاة تألفا لهم حتى لا ينصرفوا عن الدين قبل أن يذوقوا حلاوة الإيمان فيقبلوا عليه راغبين موقنين.. وقلب عمر وجوه الرأى فى هذا الشأن ثم قال:

" لقد كان رسول الله يعطيهم، والإسلام يومئذ ضعيف .. أما اليوم فقد أعز الله دينه وأعلى كلمته، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولن يتسع هذا الدين إلا لمن يدخله راغباً مؤمناً".

وهكذا نرى أن عمر قد طور فى هذه الواقعة التشريع ليتناسب مع الوضع الجديد.

وأمثلة أخرى توضح إعمال العقل قبل إبداء الرأى:

حينما جيء إليه بمسلم ارتكب ما يوجب الحد، ويشهد ثلاثة شهادة تدينه، ولم يبق إلا شهادة الرابع، ثم يصير الحد عقابا محتوما.. ويرسل عمر يستدعى الشاهد..ولا يكاد يراه مقبلا حتى تأخذه رهبة.. وحين تترسخ خطاه، ينظر إليه أمير المؤمنين ويقول:

"أرى رجلا أرجو ألا يفضح الله به واحداً من المسلمين".

ويقدم الشاهد، ويقول: لم أر شيئا يوجب الحد.. ويتنفس عمر الصعداء.

ويأتيه رجل يسعى ذات يوم ظانا أنه يحمل إليه بشرى. فيقول يا أمير المؤمنين، رأيت فلانا وفلانة يتعانقان وراء النخيل، فيمسك عمر بتلابيبه، ويعلوه بمخفقته، ويقول له بعد أن يوسعه ضربا:

"هلا سترت عليه، ورجوت له التوبة، فإن رسول الله قال: من ستر على أخيه ستره الله فى الدنيا والآخرة" !!

وإنه ليوصى الناس بهذا الفقه العظيم فيقول:

" هكذا فاصنعوا.. إذا رأيتم أخا لكم زل زلة فسددوه ووفقوه، وادعوا الله أن يتوسع عليه، ولاتكونوا عونا عليه للشيطان"..!!

ويأتيه يوما رجل يستفتيه قائلا:

– إن ابنتى كانت قد أصابت حداً من حدود الله، وأخذت الشفرة لتذبح نفسها، فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برئت، ثم تابت بعد ذلك توبة حسنة. وهى اليوم تخطب إلى قوم. أفأخبرهم بالذى كان..؟

فيجيبه عمر ذو الورع الذكى:

"أتعمد إلى ماستره الله فتبديه؟ والله لئن أخبرت بها أحداً من الناس لأجعلنك نكالاً لأهل الأمصار، اذهب وانكحها نكاح العفيفة المسلمة".

وعلى الرغم من أنه كان شديد الوطأة، شديد البأس إلا أنه كان شديد الذكاء أيضاً ولايقضى بعواطفه بل يستعين بهذا الذكاء.. فطبيعى أنه ينفر من الإثم ولكنه يمحص ظروف اجتراحه تمحيص خبير ويضع القاعدة الذهبية التى تقول:

"لأن أعطل الحدود فى الشبهات، خير من أن أقيمها فى الشبهات"..!!

وفى إحدى الليالى وكان عاسا فى المدينة.. سمع سيدة تشكو بثها وحزنها لغياب زوجها، وتبين عمر أن زوجها مجند فى أحد جيوشه وعند الصباح ذهب لابنته حفصة وسألها:

يا حفصة. كم تصبر المرأة عن زوجها؟

فتجيبه: تصبر شهراً، وشهرين، وثلاثة، وينفد مع الشهر الرابع صبرها.

فيسن من فوره قانونا، بألا يغيب فى الجهاد جندى متزوج أكثر من أربعة أشهر.. ويرسل لزوج السيدة يستدعيه من فوره..!!

ويسمع شيخاً كبيراً يبكى فى شعر جزل ولده الوحيد الذى طال غيابه عنه.. ويسأل عمر فيعلم أنه هو الآخر فى أحد جيوش المسلمين، فيستدعيه فوراً.. ثم يسن قانونا ألا يخرج إلى الجهاد من له أبوان كبيران إلا بعد إذنهما..!!

وهكذا كان يستمد قوانينه من حاجة الناس ومن واقع الحياة.

ولقد درج العرف والقانون على اعتبار الاعتراف سيد الأدلة.. وهذا حق ولكن أمير المؤمنين يقرر بفطنته أنه ليس كذلك دائما،ولابد لكى يؤخذ الاعتراف كدليل، ألا يعزل عن الظروف التى تكتنفه وتحيط به، فلربما يجيء نتيجة خوف أو إكراه، وعندئذ يفقد قيمته.. ويقول عمر:

"ليس الرجل بمأمون على نفسه إن أجعته أو أخفته، أو حبسته أن يقر على نفسه"..!

وقد كان يأمر قواد جيوشه ألا ينزلوا عقابا بجندى حتى "يطلعوا من الدرب قافلين".

فكان يرى أنه إذا ارتكب جندى خطأ ما، فلتحقق الواقعة والمسئولية ولكن توقيع الجزاء والعقوبة، يظل مرجأ حتى يغادر الجندى بلاده ويعود لوطنه ويعلل هذا بالخوف من أن يلحق الجندى بالأعداء ويأوى لصفوفهم لو أنزل به العقاب.

• وإنه ليجاء إليه يوما بغلمان صغار السن سرقوا ناقة رجل من مُزَينة؟ فلايكاد يراهم صفر الوجوه، ضامرى الأجسام حتى يسأل: من سيد هؤلاء..؟

قالوا: حاطب بن أبى بلتعة.

قال: إلىَّ به.

فلما جاء حاطب، سأله: أنت سيد هؤلاء..

قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال عمر: لقد كدت أنزل بهم العقاب، لولا ما أعلمه من أنكم تدئبونهم وتجيعونهم – لقد جاعوا فسرقوا، ولن ينزل العقاب إلا بك!!

ثم سأل صاحب الناقة:

– يا مزنى، كم تساوى ناقتك؟

قال: أربعمائة..

قال عمر لحاطب: اذهب فأعطه ثمانمائة..!!

ثم قال للغلمان: اذهبوا، ولا تعودوا لمثلها..!!

وهكذا إذا تتبعنا ما كان يسنه عمر من قوانين وما كان يطلقه من فتاوى فلن يتسع لنا المجال لكى نرصده جميعا والأمثلة كثيرة وعديدة فهناك كتبه لقواده وتوجيهاته العسكرية وكتبه لولاته..

وقبل أن يتسنى لنا أن نختم الحديث فى هذا الشأن لابد أن نذكر مثالين يعبران عن مدى ذكائه وبساطته ودعابته:

فحين يبصر امرأة تستجيش أحزان الناس وتمسح دموعها الكواذب فيعلوها بمخفقته.. ويطردها ويقول: "إنها لاتبكى لشجونكم وإنما تبكى بدراهمكم..".

ويسأل أحد أولاد هرم بن سنان الذى خلده بشعره، زهير بن أبى سلمى، فيقول له أنشدنى بعض مدح زهير أباك. فينشده فيقول عمر: إنه كان ليحسن فيكم القول..

يجيبه الرجل: ونحن والله. إن كنا لنحسن له العطاء..

فيقول عمر: قد ذهب ما أعطيتموه.. وبقى ما أعطاكم..!!

وفى حديث لعمر أخرجه آدم بن أبى إياس فى "العلم" عن الأحوص بن حكيم ابن عمير العبسى قال: كتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى أمراء الأجناد: "تفقهوا فى الدين، فإنه لايعذر أحد باتباع باطل وهو يرى أنه حق، ولا يترك حق وهو يرى أنه باطل[1]".

رحم الله عمر فمن حسن حظ البشرية أنه واحد منها، لقد ألهمه الله رشده، ووقاه شر نفسه ومنحه من استقامة الشخصية وجلالها ما جعله نسيج وحده لا فى بلده فقط ولا فى عصره وإنما ملء كل زمان ومكان.

* * *

(١) كنز العمال ج ٥ ص ٢٢٨.

علـى بـن أبـى طالـب - رضى الله عنه -

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم الرسول، زوجه رسول الله ﷺ فاطمة ابنته بأمر من السماء، وقال لها:

"أما والله زوجتك سيداً فى الدنيا والآخرة" ولما نزلت الآية: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران:٦١]. دعا النبى ﷺ عليا وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين وضمهم إليه وقال: "اللهم هؤلاء أهلى".

وحين آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار اختص على - كرم الله وجهه- بإخوته.

وقد كان مضرب المثل فى البطولة والشجاعة، اختاره النبى ﷺ لينام فى فراشه فى الليلة التى عقدت قريش فيها أمرها على قتله ﷺ فاختاروا من كل قبيلة رجلا جلداً فاتكا، واجتمعوا عند بابه ليلا حتى أصبح الصباح وخرج من باب الدار انقضوا عليه وضربوه بسيوفهم المشحوذة ضربة رجل واحد.

ولنا أن نتخيل كيف أمضى فتى الفتيان هذه الليلة.. فلابد أن يكون بين جوانحه قلب أسد لا يخشى البأس!

وكم كان له من بطولات احتلت حيزاً كبيراً فى صفحات المجد والشرف ومنها موقفه الجليل فى يومى خيبر وأحد وغيرهما من المشاهد.

لقد كان - ﷺ وأرضاه- نموذجا فى كل صفات الخير، فى الشجاعة، وفى الكرم، وفى الوفاء، وفى التواضع، وفى الزهد، وفى العلم، وفى اللين، وفى الرفق.. فى كل شىء كان على سباقا.. وكيف لا يكون كذلك وقد تربى فى بيت النبوة ونما وترعرع فى ظل معلم البشرية وهاديها سيد الأنبياء والرسل ﷺ.

وقد وصف الإمام النووى عليا - كرم الله وجهه- بقوله:

"هو أحد العشرة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وأحد الخلفاء الراشدين، وأحد السابقين إلى الإسلام ، وقد اختلف العلماء فى أول من أسلم من الأمة، فقيل خديجة، وقيل أبو بكر وقيل على.. وقال ابن المسيب: ما كان أحد

يقول: سلونى غير على. وقال عبد الله بن عباس: أعطى علىّ تسعة أعشار العلم، ووالله لقد شاركهم فى العشر الباقى"[١].

ووصفه الإمام المناوى فى طبقاته بقوله:

"هو باب مدينة العلوم والمواهب، ولىّ المتقين، وإمام العادلين.. ختم الله به الخلافة كما ختم بمحمد ﷺ النبوة.. وكلامه أفرد بعدة أسفار كبار، وأما ما نقل عنه من التقلل والتزهد، وما اشتهر به من الترهب والتعبد فكثير.. وقال ﷺ: "والذى فلق الجنة، وبرأ النسمة إنه لعهد النبى الأمى ﷺ إلىَّ ألاّ يحبنى إلا مؤمن، ولايبغضنى إلا منافق (رواه مسلم). وفى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال: كنا نعرف المنافقين ببغضهم عليّا.."[٢].

لقد التقت شخصية البطل والرجل والمسلم فى شخصية الإمام على أصدق لقاء.

لم ينفصم البطل عن الرجل، عن المسلم فى حياة "على" على الإطلاق، فإذا رأيناه يبارز خصما مثلا؛ فليس البطل المتمكن هو وحده الذى يبارز بل إن رجولة الرجل؛ وورع المسلم هما اللذان يرسمان للبطل أسلوب المبارزة وآدابها..!!

وحين أباح الرسول ﷺ للمسلمين أن يستعملوا رأيهم واجتهادهم الخاص إذا عرضت لهم مسألة لم يجدوا لها جوابا فى القرآن أو الحديث..قد أقر "على" على التشريع بالاجتهاد عندما بعثه إلى اليمن، فقد روى أنه ودعه بقوله: "**اللهم اهد قلبه، وثبت لسانه**".وأوصاه ألا يقضى بين خصمين حتى يسمع كلام كل منهما، وقال له:"إنك إن اجتهدت فأصبت فلك أجران وإن أخطأت فلك أجر واحد".

ومن أمثلة اجتهاد الإمام على: أنه أتاه باليمن ثلاثة نفر يختصمون فى غلام، فقال كل منهم: هو لى. ولم يكن لأحد منهم دليل قوى، فأقرع على بينهم، وجعل الولد لمن خرجت له القرعة وألزمه بأن يدفع للرجلين ثلثى الدية، فبلغ ذلك الرسول ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه[٣].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات. (٢) الكواكب الدرية.

(٣) إعلام الموقعين لابن القيم ص٧٣.

وكان قد تولى أمر القضاء فى خلافة عمر بن الخطاب وغيرها الكثير وكان إذا خرج من المدينة استخلفه عليها.

وقد تعرض الإمام علىّ لمحنة كبرى بدأت بتعرضه لموقعة "الجمل" وما تحمله من معاناة نفسية ومعنوية حين خرج عليه أحب الصحابة لقلبه طلحة والزبير – رضى الله عنهما– والسيدة عائشة – رضى الله عنها– يطالبون بدم عثمان، وقد خرج إليهم فى محاولة لإخماد تلك الفتنة قبل أن يستشرى أمرها ولكنهم كانوا قد سبقوه إلى البصرة وقامت معركة بين الفريقين أشعلها الكارهون للإسلام وأحكموا مؤامرتهم واستمر القتال سبعة أيام وقتل يومئذ الصحابيان الجليلان كما قتل من الفريقين ما يقرب من عشرة آلاف.

وقام الإمام "علىّ" بتجهيز أم المؤمنين – سيدتنا عائشة– بكل ما تحتاج إليه فى رحلة العودة إلى المدينة،وشيعها بنفسه وسير معها أولاده وبعض رجاله.

واكتملت محنته حين تعرض أيضاً لخدعة التحكيم من معاوية بن أبى سفيان على يد عمرو بن العاص ومحاولة خلعه.

وحين عصاه جنوده وشيعته ومحبوه وإذا بفريق كبير من الجيش عدته حوالى اثنى عشر ألفا يعلنون التمرد ويرفعون راية العصيان رافضين نتيجة التحكيم وراحوا يرددون القول: لا حكم إلا لله.

وحين ظهر الخوارج الذين شقيت بهم الأمة طويلا ولاتزال، والذين اعتقدوا أنهم وحدهم المسلمون حقاً، وأن جمهور الأمة قد ارتدوا للكفر فاستباحوا دماءهم وأموالهم.

وما أن فرغ أمير المؤمنين "علىّ" منهم وأراد السير لأهل الشام فإذا برجاله يستمهلونه بحجة الاستعداد للقتال وراحوا يتسللون من معسكره خفية، ومن بقى مع الإمام راحوا يتقاعسون عن القتال ويتدافعون بطريقة القهقرى وهو يعظهم بكل موعظة، ويستحثهم بأبلغ القول، ولكن لا حياة لمن تنادى!!

وفى تلك الأثناء تمكن معاوية ﷺ من الاستيلاء على مصر، ومن بعدها الحجاز واليمن.

ومن خطب "علىّ" ﷺ التى تقطر مرارة وأسى بسبب خذلان شيعته وعصيانهم له فى أخريات أيامه والتى أمر أحد أصحابه بقراءتها على أهل الكوفة فى المسجد الجامع بعد صلاة الجمعة وقال فيها:

".. أما والله لوددت أن الله أخرجنى من بين أظهركم، وقبضنى إلى رحمته من بينكم.. ولوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم، فقد والله ملأتم صدرى غيظا، وجرعتمونى الأمرين أنفاسا، وأفسدتم على رأيى بالعصيان والخذلان.. حتى قالت قريش: إن ابن أبى طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم!! هل كان فيهم رجل أشد لها مراسا، وأطول مقاساة منى؟؟.. لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وهأنذا اليوم قد عدوت الستين.. ولكن لا رأى لمن لايطاع!!"

وهكذا فالدنيا – لأولياء الله وأحبابه– تعب ونصب، وقد قال الحبيب ﷺ : " لا راحة لمؤمن دون لقاء الله".

وكان الرسول ﷺ قد أخبر "علىّ" بتفاصيل قتله حتى عرّفه من سيقتله وفى أى ساعة فكان كرم الله وجهه إذا لقى عبد الرحمن بن ملجم يشير إليه قائلا لأصحابه:

– هذا قاتلى.

فإذا قالوا له:

– ألا تقتله؟

يقول لهم:

– ومن يقتلنى إذن؟

وقد تحققت نبوءة رسول الله ﷺ حين قال له يوماً:

– "يا علىّ، من أشقى الأولين وأشقى الآخرين؟"

فقال: الله ورسوله أعلم.

قال: "أشقى الأولين عاقر الناقة، وأشقى الآخرين الذى يطعنك يا علىّ". وأشار ﷺ إلى الموضع الذى سيطعن فيه.

وهكذا وكما رأينا تحققت النبوءة وقتل رحمه الله بسيف عبد الرحمن بن ملجم.

رحم الله "علىّ" ﷺ فلم يبق أحد من المسلمين إلا بح صوته ترحما عليه ، وقد وقف أحد كبار الصحابة وهو الصحابى الجليل "عبد الله بن عمر" يقول والدموع تبلل لحيته:

" ما أجدنى آسى على شىء فاتنى فى حياتى، إلا على أنى لم أقاتل مع "علىّ" الفئة الباغية".

وأحس المسلمون حينئذ بفداحة ما فعلوه وخاصة فى العراق الذين أحسوا أنهم ضالعون فى الإثم وشركاء فى الوزر، يوم تخلوا عنه وتركوه وحده فى الفضاء الموحش!! وراحوا يبكون، ويولولون..

رحم الله الإمام على رابع الخلفاء الراشدين وخاتمهم كما كان رسولنا الكريم ﷺ خاتم الأنبياء.. رحم الله إمامنا فكان نعم الإمام الفقيه العادل الشجاع، العالم الرحيم.. والذى فى إسلامه كان نموذجا عظيما مكتمل الشكل والجوهر حيث كان إسلامه عبادة، ونسكا.. جهاداً وبذلا.. ترفعاً وزهداً، فطنة وورعا.. سيادة وتواضعا.. قوة ورحمة.. عدالة وفضلا.. استقامة وعلما.. بساطة وتمكنا.. ولاء وفهما.

* * *

عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما -

هو عبد الله بن عمر بن الخطاب بنِ نفيل بن عبد العزى بنِ رباح بـن عبد الله ابن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى القرشى العدوى.

أسلم عبد الله مع أبيه عمر بن الخطاب - رضِى الله عنهما- ، وهـو غـلام لم يبلغ الحلم[١].

وعلى الرغم من صغر سنه فقد وجد فى الدين الجديد نوراً يهدى.. وفى الرسول ﷺ مثالاً يقتدى[٢] به.

وقد هاجر إلى يثرب - المدينة المنورة- قبل والده ، وذلك عندما صدر أمر النبى الكريم بالهجرة من مكة إلى المدينة المنورة.

جمع عبد الله بن عمر فى شخصه جمال الخلق[٣] والخلق[٤].

فقد كان كريم النفس،عفيف اللسان،طاهر القلب، باسط اليد بالصدقة والإحسان.

وهو إلى جانب ذلك كان مجاهداً مخلصاً لدين الله الحنيف يتمتع بقوة ورجولة جعلتا منه بطلا مقداماً[٥] فى كل الحروب التى خاضها، مجاهداً فى سبيل الله سبحانه وتعالى.

ولم يعرف التاريخ الإسلامى تابعاً مؤمناً كعبد الله بن عمر.

فهذا الفتى الأغر[٦] أحب الرسول حباً ملك عليه قلبه وعقله، فتأثر به حتى حفظ كل تصرفاته.

وعندما أصبح رجلاً.. ومضى الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى. استمر يمارس العادات التى كان يقوم بها النبى ﷺ وكأن ذاكرته خزان لكل الصور والمشاهد التى رآها من خلال مرافقة النبى المصطفى.. وعرف بين المسلمين بأنه من أكثر الناس اتباعاً لآثار الرسول ﷺ.

لقد كان ابن عمر تاجراً كبيراً أصاب من التجارة مالاً كثيـراً . كما كان دخله

---

(١) الحلم : سن الرجولة .
(٢) يقتدى به : يُقلِّد .
(٣) الخُلُق : الأخلاق .
(٤) الخَلْق : الهيئة والشكل .
(٥) مقدام : شجاع .
(٦) الأغر : الجميل .

من بيت المال كبيراً. ولكنه لم يحاول أن يجمع ثروة كبيرة تفتنه[١] عن دينه أو يبذخ[٢] فى الأرض فينسى آخرته.

وحب الصدقة والإحسان للفقراء يتملك فى نفسه حتى قيل إنه كان يتصدق فى المجلس الواحد بثلاثين ألف درهم.

وقصص الإحسان حول عبد الله أكثر من أن تعد وتحصى لأنه وقف حياته عليه.

وعلى الرغم من كثرة مال ابن عمر فإن الدنيا لم تفتنه بزيفها ولا جذبته بزخرفها. بل عاش حياته يبذل ماله فى سبيل الله دون أن يفكر بنعيم العيش ورفاهية الحياة.

وكان الرسول الكريم يرى فيه رجل خير وتقى فعلمه كثيراً.. وحدثه كثيراً.. ونصحه كثيراً.

وفى ذلك يقول عبد الله:

أخذ رسول الله ﷺ يوماً ببعض جسدى وقال :

- يا عبد الله كن فى الدنيا كأنك غريب ، أو كأنك عابر سبيل.. وعن نفسك كن فى أهل القبور[٣].

ثم قال لى :

- يا عبد الله بن عمر فإنه ليس ثَمَّ دينار ولا درهم إنما هى حسنات وسيئات.. جزاء بجزاء وقصاص بقصاص. ولا تتبرأ من ولدك فى الدنيا فيتبرأ الله منك فى الآخرة. فيفضحك على رءوس الأشهاد.

ومن جر ثوبه خيلاء[٤] لم ينظر الله إليه يوم القيامة.

والتزم ابن عمر بنصيحة رسول الله ﷺ طيلة حياته فكان خير من حدث، وأحسن من أفتى.

---

(١) تفتنه : تحوله .
(٢) يبذخ : يسرف .
(٣) أهل القبور : الموتى .
(٤) خيلاء : غرور شديد .

وعاش عبد الله بن عمر حياته كلها زاهداً نعيمها لإيمانه أن النعيم الحقيقى هو فى لقاء الله سبحانه وتعالى، بأعمال طاهرة ونفس طيبة.

ولم يزهد ابن عمر بمال الدنيا فقط.بل زهد بمناصبها ومراكزها وسلطتها.

وقال "مالك":

– بلغ ابن عمر ستاً وثمانين سنة، وأفتى فى الإسلام ستين سنة، فقدم عليه وفود الناس من أقطار الأرض.

واعتزل ابن عمر كل تقاتل بين الإخوة. ومكث فى المدينة يفتى فى شئون الناس معتمداً على سعة علمه وصدق حديثه وعمق إيمانه.

وكان ابن عمر شديد الاحتياط والتوقى لدينه فى الفتوى وكل ما تأخذ به نفسه.

ولما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان وكان العمر قد تقدم كثيراً بابن عمر، هاجم الحجاج بن يوسف الثقفى مكة ليقضى على نفوذ عبد الله بن الزبير الذى تصدى لعبد الملك ، ولم يقر له بالخلافة.

وفى موسم الحج أمر عبد الملك الحجاج بأن يحج مع عبد الله بن عمر وأن يقتدى به. فكان ابن عمر يتقدم الحجاج بالمواقف فى عرفة وغيرها.

وحقد عليه الحجاج من أجل ذلك.

وفى أحد الأيام بينما الحجاج يخطب وهو فى أوج قوته وعظمته قال:

– إن ابن الزبير حرف كتاب الله.

انتفض ابن عمر فى مجلسه، وهو الذى عرف بأمانته واستقامته ومناصرته للحق. ووقف وسط المسلمين فى وجه الحجاج يصرخ موجها كلامه إليه:

– كذبت.. كذبت.. كذبت..

فبهت[1] الحجاج وأخذته المفاجأة، واعتراه الارتباك أمام صرخات ابن عمر،

---

(١) بهت : ذهل .

وعجز عن الرد عليه وهو الذى كانت ترهبه الناس. فحفظها فى نفسه وتوعد عبد الله شراً.

وبالفعل نفذ الحجاج تهديده ، وأوعز إلى أحد غلمانه بالقضاء على ابن عمر. وحضر الرجل حربة مسمومة وسار خلف عبد الله حتى تمكن منه فوخزه برأس الحربة فى قدمه فأدماه.

ومرض عبد الله بن عمر بسبب ذلك وبدأ السم يسرى فى جسده.

واشتد المرض عليه ولم يستطع جسمه أن يصمد طويلاً أمام هذا المرض وقد جاوز السادسة والثمانين من العمر.

رحم الله عبد الله بن عمر فقد كان رقيق القلب يبكى إذا قرأ القرآن أو سمعه، وكان أيضاً شديد الحياء والذكاء وكان من أكثر الصحابة إفتاء حيث أفتى حوالى ستين عاما.

* * *

زيد بن ثابت - رضى الله عنه -

هو أنصارى من المدينة.. أسلم وهو صبى صغير، فقد كان حين هاجر إليها الرسول ﷺ يبلغ حوالى إحدى عشرة سنة وبورك بدعوة من الرسول له.

ورده الرسول لصغر سنه حينما صحبه أباه معه لغزوة بدر، وأيضاً فى أحد رغم أنه هو وبعض الفرسان الصغار بذلوا ما فى جهدهم وتضرعوا له بالرجاء تارة وبالدفع تارة، وأيضاً باستعراض عضلاتهم ولكنه وعدهم بإشراكهم فى الغزوة المقبلة لصغر سنهم.

وهكذا بدأ زيد مع إخوانه دوره كمقاتل فى سبيل الله بدءاً من غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة.

ونمت شخصيته المسلمة المؤمنة نمواً سريعاً وباهراً ولم يبدع كمجاهد فحسب، بل كمثقف متنوع المزايا أيضاً.. فكان يتابع القرآن حفظا.. ويكتب الوحى لرسوله ويتفوق فى العلم والحكمة.. وحين يبدأ الرسول فى إبلاغ دعوته للعالم الخارجى كله.. وإرسال كتبه لملوك الأرض وقياصرتها يأمر زيداً أن يتعلم بعض لغاتهم فيتعلمها فى وقت وجيز.

وهكذا تألقت شخصية "زيد بن ثابت" وتبوأ فى المجتمع الجديد مكانا عليا وصار موضع احترام المسلمين وتوقيرهم.

يقول "الشعبى" :

"ذهب زيد بن ثابت ليركب، فأمسك ابن عباس بالركاب. فقال له زيد: تنح يا ابن عم رسول الله.. فأجابه ابن عباس: لا، فهكذا نصنع بعلمائنا"..

وخلال إحدى وعشرين سنة تقريبا، نزل القرآن وكان الحفظة والمسجلون يوالون عملهم فى توفيق من الله كبيرا.

وبعد أن تم نزولا وخلال الفترة الأخيرة من فترات تنزله كان الرسول ﷺ يقرؤه على المسلمين.. مرتبا.

وبعد وفاته ﷺ شغل المسلمون من فورهم بحروب الردة.

وما كادت نار الردة تخبو حتى فزع عمر إلى الخليفة " أبو بكر الصديق" ﷺ

ملحا أن يسارعوا فى جمع القرآن وخاصة أن عدداً كبيراً من المسلمين من قراء القرآن وحفظته كانوا قد استشهدوا.

فدعا الخليفة زيداً وأمره أن يبدأ بجمع القرآن الكريم مستعينا بذوى الخبرة فى هذا الموضوع.

فجمع "زيد" أصحابه وأعوانه ومضى يجمع الآيات والسور من صدور الحفاظ ومن مواطنها المكتوبة ويقابل ويعارض ويتحرى،حتى جمع القرآن مرتبا ومنسقاً.

وقد قال زيد وهو يصور الصعوبة الكبرى التى شكلتها قداسة المهمة وجلالها: "والله لو كلفونى نقل جبل من مكانه، لكان أهون علىَّ مما أمرونى به من جمع القرآن".

ونجح فى مهمته وكانت هذه هى المرحلة الأولى فى جمع القرآن.

ولكن القرآن جمع هذه المرة مكتوبا فى أكثر من مصحف، وعلى الرغم من أن مظاهر التفاوت والخلاف بين هذه المصاحف كانت شكلية إلا أنه كان لابد من توحيدها فى مصحف واحد.

وفى خلافة "عثمان" ﷺ طالب بعض الصحابة وعلى رأسهم "حذيفة بن اليمان" بتوحيد المصحف واستنجد "عثمان" ﷺ بزيد أيضاً لهذه المهمة والذى أتمها زيد وأصحابه على خير وجه حيث أتوا بالمصاحف من بيت حفصة بنت عمر ﷺ.

وكان زيد من أشهر المفتين حتى أنه كان يختلف فى بعض القضايا الفقهية مع عمر وعلىّ – رضى الله عنهما– وكان المسلمون يستشيرونه كثيراً نظراً لعلمه الغزير وتفقهه وإلمامه بما نزل به الوحى.

رحم الله زيداً فقد كانت كلمته بين أعوانه هى الفيصل والحجة.. ويكفى أنه بين الأجلاء الذين جاهدوا ليقروا فوق الأرض دينا قيما وليبددوا الظلام بنوره.

وأشهر تلاميذ هؤلاء سعيد بن المسيب وعودة بن الزبير، وأشهر تلاميذ هؤلاء محمد بن شهاب الزهرى ويحيى بن سعيد وأشهر من خلف هؤلاء مالك ابن أنس وأقرانه.

* * *

من أشهر أساتذة التشريع من الصحابة فى مكة :

عبـد الله بـن عبـاس - رضى الله عنه -

هو ابن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، عم رسول الله ﷺ.

ولقبه- الحبر.. حبر هذه الأمة، هيأه لهذا اللقب، ولهذه المنزلة استنارة عقله، وذكاء قلبه، واتساع معارفه.

ويشبه عبد الله بن العباس، عبد الله بن الزبير فى أنه أدرك الرسول وعاصره وهو غلام، ومات الرسول قبل أن يبلغ ابن عباس سن الرجولة.

لكنه هو الآخر تلقى فى حداثته كل خامات رجولته، ومبادئ حياته من رسول الله ﷺ الذى كان يؤثره، ويزكيه، ويعلمه الحكمة الخالصة.

وبقوة إيمانه، وقوة خلقه، وغزارة علمه، اعتلى ابن عباس ﷺ مكاناً علياً بين الرجال حول الرسول.

لقد عرف ابن عباس طريق حياته فى أوليات أيامه وازداد بها معرفة، عندما رأى الرسول ﷺ يدنيه منه وهو طفل ويربت على كتفه ، ويدعو له قائلاً:

" اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل".

ثم توالت المناسبات والفرص التى يكرر فيها الرسول هذا الدعاء ذاته لابن عمه- عبد الله بن عباس.. وآنئذ، أدرك ابن عباس إنه خلق للعلم، وللمعرفة، وكان استعداده العقلى يدفعه فى هذا الطريق دفعاً قوياً.

فعلى الرغم من أنه لم يكن قد جاوز الثالثة عشرة من عمره يوم مات رسول الله، فإنه لم يضيع من طفولته الواعية يوماً دون أن يشهد مجالس الرسول ويحفظ عنه ما يقول.

وبعد ذهاب الرسول إلى الرفيق الأعلى حرص ابن عباس على أن يتعلم من أصحاب الرسول السابقين ما فاته سماعه وتعلمه من الرسول نفسه.

وقد جعل من نفسه "علامة استفهام" دائمة.. فلا يسمع أن "فلاناً" يعرف حكمة، أو يحفظ حديثاً، إلا سارع إليه وتعلم منه.

وكان عقله المضيء الطموح يدفعه لفحص كل ما يسمع.. فهو لا يعنى بجمع المعرفة فحسب، بل يعنى مع جمعها بفحصها وفحص مصادرها.

يقول عن نفسه:

" إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد، ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ".

وهذا يعطينا صورة لحرصه على إدراك الحقيقة والمعرفة فيقول:

" لما قبض رسول الله ﷺ قلت لفتى من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله، فإنهم اليوم كثير.

"فقال: ياعجبا لك يا ابن عباس!! أترى الناس يفتقرون إليك، وفيهم من أصحاب رسول الله من ترى..؟

"فتركت ذلك، وأقبلت أنا أسأل أصحاب رسول الله.. فإن كان ليبلغنى الحديث عن الرجل، فآتى إليه وهو قائل فى الظهيرة، فأتوسد ردائى على بابه، يسفى الريح علىَّ من التراب، حتى ينتهى من مقيله، ويخرج فيرانى، فيقول: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك..؟؟ هلا أرسلت إلىَّ فآتيك..؟؟ فأقول: لا، أنت أحق بأن أسعى إليك، فأسأله عن الحديث وأتعلم منه"..!!!

هكذا راح فتانا العظيم يسأل، ويسأل، ويسأل.. ثم يفحص الإجابة مع نفسه، ويناقشها بعقل جرىء.

وهو فى كل يوم، تنمو معارفه، وتنمو حكمته، حتى توافرت له فى شبابه الغض حكمة الشيوخ وأناتهم، وحصافتهم، وحتى كان أمير المؤمنين عمر ﷺ يحرص على مشورته فى كل أمر كبير.. وكان يلقبه بـــ "فتى الكهول"..!!

سئل ابن عباس يوماً: أنَّى أصبت هذا العلم"..؟؟

فأجاب:

" بلسان سئول...

" وقلب عقول"...

فبلسانه المتسائل دوماً، وبعقله الفاحص أبداً، ثم بتواضعه ودماثة خلقه، صار ابن العباس "حبر هذه الأمة".

ويصفه "سعد بن أبى وقاص" بهذه الكلمات:

"ما رأيت أحداً أحضر فهماً، ولا أكبر لباً، ولا أكثر علماً، ولا أوسع حلماً من ابن عباس.."

"ولقد رأيت "عمر" يدعوه للمعضلات، وحوله أهل بدر من المهاجرين والأنصار فيتحدث ابن عباس، ولا يجاوز عمر قوله".

وتحدث عنه عبيد الله بن عتبة فقال:

"ما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ من ابن عباس".

" ولا رأيت أحداً، أعلم بقضاء أبى بكر، وعمر، وعثمان منه."

" ولا أفقه فى رأى منه."

"ولا أعلم بشعر ولا عربية، ولا تفسير للقرآن، ولا بحساب وفريضة منه."

"ولقد كان يجلس يوماً للفقه.. ويوماً للتأويل.. ويوماً للمغازى.. ويوماً للشعر.. ويوماً لأيام العرب وأخبارها.."

"وما رأيت عالماً جلس إليه إلا خضع له،ولا سائلاً سأله،إلا وجد عنده علماً"..!!

وكان تنوع ثقافته، وشمول معرفته يبهر الألباب.. فهو الحبر الحاذق الفطن فى كل علم.. فى تفسير القرآن وتأويله.. وفى الفقه.. وفى التاريخ.. وفى لغة العرب وآدابهم، ومن ثم فقد كان مقصد الباحثين عن المعرفة، يأتيه الناس أفواجاً من أقطار الإسلام، ليسمعوا منه، وليتفقهوا عليه..

حدث أحد أصحابه ومعاصريه فقال:

" لقد رأيت من ابن عباس مجلساً، لو أن جميع قريش فخرت به، لكان لها به الفخر.

"رأيت الناس اجتمعوا على بابه حتى ضاق بهم الطريق، فما كان أحد يقدر أن يجىء، ولا أن يذهب..

"فدخلت عليه فأخبرته بمكانهم على بابه، فقال لى:ضع لى وضوءاً، فتوضأ وجلس، وقال:اخرج إليهم، فادع من يريد أن يسأل عن القرآن وتأويله..

"فخرجت فآذنتهم:فدخلوا حتى ملأوا البيت، فما سألوا عن شىء إلا أخبرهم وزادهم..

"ثم قال لهم: إخوانكم.. فخرجوا ليفسحوا لغيرهم..

"ثم قال لى: اخرج فادع من يريد أن يسأل عن الحلال والحرام..

"فخرجت فآذنتهم، فدخلوا حتى ملأوا البيت، فما سألوه عن شىء إلا أخبرهم وزادهم..

"ثم قال: إخوانكم.. فخرجوا..

"ثم قال لى: ادع من يريد أن يسأل عن الفرائض، فآذنتهم، فدخلوا حتى ملأوا البيت، فما سألوه عن شىء إلا أخبرهم وزادهم..

"ثم قال لى: ادع من يريد أن يسأل عن العربية، والشعر..

"فآذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت، فما سألوه عن شىء إلا أخبرهم، وزادهم"..!!

وكان ابن عباس يمتلك إلى جانب ذاكرته القوية، بل الخارقة، ذكاءً نافذاً، وفطنة بالغة..

كانت حجته كضوء الشمس ألقاً، ووضوحاً، وبهجة.. وهو فى حواره ومنطقه، لايترك خصمه مفعماً بالاقتناع فحسب، بل ومفعماً بالغبطة من روعة المنطق وفطنة الحوار.

ومع غزارة علمه، ونفاذ حجته، لم يكن يرى فى الحوار والمناقشة معركة ذكاء، يزهو فيها بعلمه، ثم بانتصاره على خصمه.. بل كان يراها سبيلاً قويماً لرؤية الصواب ومعرفته..

ولطالما روع الخوارج بمنطقه الصارم العادل..

ولم يكن ابن عباس يمتلك هذه الثروة الكبرى من العلم فحسب. بل كان يمتلك معها ثروة أكبر، من أخلاق العلم وأخلاق العلماء.

فهو فى جوده وسخائه إمام وعلم.. إنه ليفيض على الناس من ماله.. بنفس السماح الذى يفيض به عليهم من علمه..!!

ولقد كان معاصروه يتحدثون فيقولون:

"ما رأينا بيتاً أكثر طعاماً، ولا شراباً، ولا فاكهة، ولا علماً- من بيت ابن عباس"..!!

وهو طاهر القلب، نقى النفس، لا يحمل لأحد ضغناً ولا غلاً.

يقول عن نفسه:

"إنى لآتى على الآية من كتاب الله فأود لو أن الناس جميعاً علموا مثل الذى أعلم.."

"وإنى لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يقضى بالعدل، ويحكم بالقسط، فأفرح به، وأدعو له.. ومالى عنده قضية..!!

وإنى لأسمع بالغيث يصيب للمسلمين أرضاً فأفرح به، ومالى بتلك الأرض سائمة..!!"

وهو عابد قانت أواب.. يقوم الليل، ويصوم من الأيام، ولاتخطئ العين مجرى الدموع تحت خديه،إذ كان كثير البكاء كلما صلى..وكلما قرأ القرآن.

فإذا بلغ فى قراءته بعض آيات الزجر والوعيد، وذكر الموت، والبعث علا نشيجه ونحيبه.

وهو إلى جانب هذا شجاع، أمين، حصيف.. ولقد كان له فى الخلاف بين على ومعاوية آراء تدل على امتداد فطنته، وسعة حيلته.

وهو يؤثر السلام على الحرب.. والرفق على العنف.. والمنطق على القسر..

عندما هم الحسين ﷺ بالخروج إلى العراق ليقاتل زياداً، ويزيد، تعلق ابن العباس به واستمات فى محاولة منعه.. فلما بلغه فيما بعد نبأ استشهاده، أقضه الحزن عليه، ولزم داره.

وفى كل خلاف ينشب بين مسلم ومسلم، لم تكن تجد ابن عباس إلا حاملاً راية السلم، والتفاهم، واللين..

صحيح أنه خاض المعركة مع الإمام علىّ ضد معاوية. ولكنه فعل ذلك لأن المعركة فى بدايتها كانت تمثل ردعاً لازماً لحركة انشقاق رهيبة، تهدد وحدة الدين ووحدة المسلمين.

لقد عاش ابن عباس يملأ دنياه علماً وحكمة، وينشر بين الناس عبيره وتقواه.. وفى عامه الحادى والسبعين، دعى للقاء ربه العظيم..

وشهدت مدينة الطائف مشهداً حافلاً لمؤمن يزف إلى الجنان.

وبينما كان جثمانه يأخذ مستقره الآمن فى قبره، كانت جنبات الأفق تهتز بأصداء وعد الله الحق: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[الفجر:٢٧-٣٠].

رحم الله ابن عباس فقد كان نعم الصحابى الجليل الذى ملأ الكون فقها وعلما وتمنى الخير لكل من يعرف ومن لا يعرف من الناس.

- ومن أشهر تلاميذه عكرمة، ومجاهد، وعطاء وأشهر تلاميذهم سفيان ابن عينية، ومفتى الحجاز مسلم بن خالد، وأشهر من خلف هؤلاء الشافعى فى حياته الأولى.

* * *

من أشهر أساتذة التشريع من الصحابة بالعراق:

عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه -

هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن سمح بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تيم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر الهذلى أبو عبد الرحمن حليف بنى زهرة.

وقد كان الناس يدعونه: "ابن أم عبد".

كان عبد الله بن مسعود من عامة الناس فى مكة. بل كان أجيراً عند سادات قريش يرعى غنمهم ولا يجرؤ على مجالستهم فى ناديهم.

وجاء رسول الله ﷺ برسالته السماوية المباركة إلى جميع بنى البشر. وبدأ يبشر بها فى مكة المكرمة، ويدعو للدين الجديد المنزل من الله سبحانه وتعالى بواسطة الملاك جبريل - عليه السلام-.

وكان الدين الذى ينادى به خير المرسلين وسيد الخلق محمد بن عبد الله، ﷺ يدعو للمساواة بين البشر، ولإزالة الظلم عن الناس، ومنع الاضطهاد الذى يتعرض له الضعفاء.

فهو دين الإنسانية الحقة، التى تجعل الإنسان يحب الإنسان، والغنى يساعد الفقير، والقوى يعين الضعيف. ولذلك فهو موجه للسادة، كما هو موجه للفقراء والمعدمين والصعاليك.

وسمع عبد الله بن مسعود بدعوة محمد بن عبد الله وهو غلام يافع. ولكن لم يهتم لذلك الأمر، وهو الأجير الفقير، الذى يعيش من رعى عنم عقبة بن أبى معيط. فالصراع بدا له بين السادة والعظام.ولا مكان له فيه.. فهو بعيد عنه.

ولكنه بعد أن لمس بيديه صدق الدعوة وشاهد بعينيه كرامة الرسول ﷺ ، استجاب للدعوة، وأشهر إسلامه، ووضع نفسه فى خدمة النبى الكريم الذى رحب به برضا وسرور.

ولقد اكتسب عبد الله بن مسعود من خلال ملازمته للرسول علماً وفقهاً وتقى. وقال عن نفسه فى ذلك:

"أخذت من فم رسول الله ﷺ سبعين سورة لا ينازعنى فيها أحد".

ولم يكن عبد الله بن مسعود من أبرع من قرأ القرآن الكريم وحسب، بل كان أيضاً من أفقه الناس لمعانيه، وأعلمهم بآياته.

ولقد شارك عبد الله بن مسعود فى الغزوات، وكان إلى جانب الرسول ﷺ مثل بقية الصحابة الكرام مستعداً لبذل الروح، والجهاد بالنفس فى سبيل الله العلى القدير.

ظل عبد الله بن مسعود يلازم النبى المصطفى طيلة حياته حتى صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى.

ولقد عرف الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ قدر ابن مسعود، فعينه أميناً على بيت مال الكوفة.

وحياة عبد الله بن مسعود، فى دار النبى الكريم جعلت منه رجل علم وتقى وورع وازداد بفضل تلك الصلة المباركة علما وفقها فكان فقيه الأمة وعالم الدين وراوى الحديث الشريف وكان إجلاله لسيد الخلق وتوقيره له ﷺ ، بلغا حداً جعلاه يرتجف من الرهبة والاحترام عند ذكر أى حديث شريف عنه، خشية تحويره.

وبدأت شمعة حياة عبد الله بن مسعود تذوب وتوشك أن تنطفئ. وانصرف إلى العبادة والتأمل وهو يردد. "خير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، وشر العمى عمى القلب، وأعظم الخطايا الكذب، وشر المكاسب الربا، وشر المأكل مال اليتيم، ومن يعف يعف الله عنه، ومن يغفر يغفر الله له".

هذا هو دستور عبد الله بن مسعود فى حياته.

فعبد الله بن مسعود لم يكن من المتمسكين بزيف الدنيا وزخرفها. فهى بنظره زائلة، بل كان ينشد رضا رب العالمين تبارك وتعالى.

ومات عبد الله بن مسعود عن بضع وستين سنة، ودفن فى البقيع ، فى المدينة المنورة مقر شهداء أحد الأبرار. وصلى عليه ليلاً الصحابى الجليل الزبير ابن العوام.

رحم الله عبد الله بن مسعود ورضى عنه، فهو أول قارئ للقرآن، وهو من تمنى أن يباركه الرسول بدفنه كما باركه بتعليمه وملازمته.

ومن أشهر تلاميذه علقمة بن قيس والقاضى شريح، وأشهر تلاميذهما إبراهيم النخعى وحماد بن سليمان وعنه أخذ أبو حنيفة وأقرانه.

* * *

من أشهر أساتذة التشريع من الصحابة بمصر:

عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما -

هو أبو محمد عبد الله بن عمرو بن العاص القرشى السهمى عرف بكثرة روايته للحديث النبوى، لأنه كان يكتب. وكان رضى الله عنه يكتب كل شىء يسمعه من رسول الله ﷺ، فنهاه الصحابة عن ذلك وقالوا له:إن النبىﷺ يتكلم فى الرضا والغضب فلا تكتب كلما تسمع، فسأل النبى ﷺ عن ذلك فقال له الرسول ﷺ:

"فوالذى نفسى بيده ما خرج منهما إلا حق، يعني شفتيه".

وروى ابن سعد عن مجاهد أنه قال: رأيت عند عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفة فسألت عنها فقال: هذه الصادقة فيها ما سمعت من رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه فيها أحد.

ولنلق بعض الضوء على هذه الصحيفة الصادقة التي هي من أشهر الصحف المدونة في العهد النبوي.

الصادقة

أشهر الصحف المدونة فى العهد النبوى

من أشهر الصحف التى دونت وكتبت في العهد النبوى، صحيفة عبد الله بن عمرو ابن العاص، ولهذه الصحيفة أهمية علمية بالغة، إذ إنها تعتبر من أهم الوثائق التاريخية للدلالة على كتابة الحديث بين يدي رسول الله ﷺ بإذنه، فقد كان ابن عمرو أول من كتب الحديث بين يدى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

ويزيد من أهمية هذه الصحيفة ما ذكره ابن الأثير فى "أسد الغابة" من أنها تضم ألف حديث وأن صاحبها متقدم الإسلام، وقد توفر له من أسباب التحمل وكثرة الرواية مالم يتوافر لغيره.

ولذا فقد جمع بين حفظ الحديث فى قلبه، وكتابته في الصحف، يقول أبو هريرة ﷺ: " ما كان أحد أكثر حديثا عن رسول الله ﷺ منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب " رواه البخاري.

ولكثرة ما حفظ عبد الله بن عمرو وما تحمل، فقد كان الكثير من الصحابة – رضى الله عنهم– يحرصون على السماع منه والأخذ عنه، قالت عائشة – رضى الله عنها– لعروة بن الزبير: يا ابن أختى بلغنى أن عبد الله بن عمرو مار بنا إلى الحج فألحقه فاسأله فإنه قد حمل عن النبى ﷺ علما كثيرا.

وترجع كتابة عبد الله بن عمرو للحديث إلى إذن رسول الله ﷺ له فى الكتابة، فقد كان يحسن الكتابة ولايلتبس عليه شيء، وفيما رواه ابن سعد عن عبد الله ابن عمرو أنه قال: استأذنت النبى ﷺ فى كتابة ما سمعت منه فأذن لى فكتبته، فكان عبد الله يسمى صحيفته تلك الصادقة.

وسبب تسمية هذه الصحيفة بالصادقة، أنه كتبها عن رسول الله ﷺ مباشرة، قال مجاهد : رأيت عند عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفة فسألت عنها فقال:

"هذه الصادقة فيها ما سمعت من رسول الله ﷺ أحد" رواه ابن سعد. وقد كان عبد الله يروى ويملى الحديث، ولم تتحدث المصادر عن المنهج الذى كان يسير عليه فى إملائه، ولكن المعروف عنه وعن غيره من الصحابة أنهم كانوا فى غاية التثبت لما يروون، سواء أكان من الحفظ أم كان من الصحيفة الصادقة أم كان من غيرها.

وكان عبد الله بن عمرو يعتز بالصحيفة الصادقة، لأنه أخذها وكتبها عن رسول الله ﷺ وليس بينه وبين رسول الله ﷺ أحد، وكان يقول: ما يرغبنى فى الحياة إلا خصلتان: الصادقة والرهط، فأما الصادقة فصحيفة كتبتها عن رسول الله ﷺ ، وأما الرهط فأرض تصدق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها.

وكان عبد الله بن عمرو يملى الأحاديث على تلاميذه ومن يتلقون عنه السنة، كما كان محافظا على صحيفته، ويوليها أكبر العناية والصيانة خشية الضياع ، وقد حفظ أهله من بعده هذه الصحيفة، وكان حفيده عمرو بن شعيب يحدث منها.

ومع كثرة ما تحمل عبد الله بن عمرو، مع أنه كان يكتب الحديث،وأبو هريرة

لا يكتب مع هذا نرى أن ما رواه أبو هريرة أضعاف ما رواه ابن عمرو، مع أنه كان من المنتظر والمحتمل أن يكون العكس.

هذه حقيقة، ولكننا إذا عرفنا أن ابن عمرو كان اشتغاله بالعبادة أكثر من التعليم، وأنه أقام بعد الفتوح فى مصر، بينما كان أبو هريرة فى المدينة، يتصدر للحديث، هذا إلى جانب ما حظى به أبو هريرة من دعوة رسول الله ﷺ له ألا ينسى، إذا عرفنا هذا، وقفنا على السبب فى كثرة مرويات أبى هريرة عن ابن عمرو - رضى الله تعالى عنهما -.

وكان من أشهر الصحابة الذين نزلوا مصر بعد الفتح الإسلامى عبد الله بن عمرو ابن العاص الذى كان من أكثر الصحابة حديثا عن رسول الله ﷺ، حيث كان يمتاز عن غيره بكتابة ما يسمعه من الرسول ﷺ. كما نزل مصر عقبة بن عامر الجهنى، وخارجة بن حذافة ومعاذ وغيرهم.

وتعلم على أيدى هؤلاء الصحابة كثير من أهل البلاد وتخرج عليهم كثير من التابعين، منهم أبو الخير مرثد بن عبد الله اليزنى مفتى أهل مصر، ومنهم يزيد ابن أبى حبيب.

ومن أشهر تلاميذ عبد الله بن عمرو بن العاص مفتى مصر يزيد بن حبيب، وأشهر تلاميذه الليث بن سعد وأقرانه من بنى عبد الحكم، وأشهر من خلف هؤلاء الشافعى فى حياته الأخيرة.[1]

* * *

(١) عبد الوهاب خلاف: خلاصة تاريخ التشريع الإسلامى ص ٦٣.

المراجـــع

تاريـــخ التشريـــع الإسلامـــى	د. أحمـــد شلبـــى
مصـــادر التشريـــع الإسلامـــى	د. أنور محمود دبور
تاريـــخ التشريـــع الإسلامـــى	الشيخ محمد الخضرى بك
أصـــول التشريـــعَ الإسلامـــى	للأستاذ على حسب الله
خلاصة التشريـــع الإسلامـــى	عبد الوهـــاب خـــلاف
الفـــــاروق عمـــــــر	د. محمد حسيـــن هيكل
فـــى رحـــــاب عمـــــر	خالـــد محمـــد خالـــد
فـــى رحـــــاب علـــــى	خالـــد محمـــد خالـــد
صـــور مـــن حيـــاة الصحابة	د. عبد الرحمن رأفت الباشا
أعمـــــدة الإســـــــلام	حلمـــى علـــى شعبـــان
أصـــول الفقـــــــــه	للأستـــاذ الشيـــخ بدران
أصـــول الأحكـــام الشرعيـــة	للدكتـــور يوسف قاســـم
السيـــــرة النبـــويـــــة	ابـــن هشـــــام
أســـد الغابـــــــة	ابـــن الأثيـــــر
ارشاد العباد إلى حجية خبر الآحاد	رمضان أحمد عبد ربه عصفور
رجـــال حـــول الرســـول	خالـــد محمـــد خالـــد
حيـــاة الصحابـــــــة	محمد يوسف الكاندهلوى
صـــور مـــن حيـــاة التابعين	د. عبد الرحمن رأفت الباشا
نســـــاء مؤمنـــــات	عمـــــرو يوســـف

وهنا مراجع عديدة ذكرت فى ذيل الصفحات مباشرة للتخفيف على القارئ.